

# تأثير مفهوم اللباس

## الغربي على المجتمعات

### الشمسية

جعفر حمزة المالكي - البحرين

"المغلوب دائماً يتشبه بالغالب" عبارة قوية المعنى والإشارة قالها ابن خلدون، فالنفسية المنهزمة لدى المغلوب تدعوه للتشبه بالغالب الذي يترك عادة تأثيراً قوياً في سلوكيات الفرد والمجتمع تتمظهر آثارها في الاقتصاد والسياسة والعادات والأخلاق.

وعقدة الدونية في أغلب المجتمعات الشرقية لها بالغ الأثر في الانجذاب بشكل مباشر أو غير مباشر نحو الآخر، القوي بقدراته وإمكاناته الذي يستتبع حسب نظر الشرقيين المستلبين قوة الآخر في منهجيته الفكرية والأيدولوجية. لذلك كان سهلاً على الشرقي أن يقلده عبر أبسط وسيلة ممكنة في التنفيذ، ألا وهي اللباس، خاصة إذا تأسل مفهوم الهزيمة لديه. وينسحب مثل هذا التقليد ليشمل كل معنى شكلي وفكري يتحرك من خلال "المغلوب"، وتتعزز نظرتة لذاتة عبر الغلبة المحكوم بها. تقول إحدى النساء الإيرانية عن وضعهن في العهد السابق: "لم يكن المهم هو دورنا كموظفات أو مدرسات وإنما طريقتنا في ارتداء ملابسنا".

"إنه عالم صغير، صغير جداً، ولا يمكن أن نضع حدوداً لمفاهيمه وقيمه؛ لأنه صغير"، بهذه العبارات وغيرها تظهر لنا إحدى انعكاسات صور العولمة التي تستتبع الكثير من محاولات إلغاء الهوية الخاصة عند الشعوب، وبطبيعة الحال مثل هذا التصور يؤدي إلى الكثير من أزمات التناسق المعرفي بين ثقافة أمة ما وتعاملها مع واقع ثقافي مغاير، وبذا يكون المجتمع أمام أمرين ثالثهما صعب جداً، فإما الانخراط الذي يذهب بفرداته في الثقافة والسلوك والمنهج، وإما الانغلاق على الذات الذي يؤدي إلى الانفجار، والثالث الصعب هو عملية المسابرة مع الحفاظ على الهوية.

وتتصاعد وتيرة الإنذار وضرورة المحافظة على الثقافة الأم في قلب المجتمعات الغربية نفسها، ففي فرنسا - مثلاً - متمثلة في مثقفها ومفكرها، نجدهم يحذرون دائماً من غزو المفاهيم الاستهلاكية والقيمية الأميركية. وما سوقنا لهذا المثل وغيره مما هو موجود في

الغرب إلا إشارة مقصودة لتبيان معنى الفصل الواجب بين مفهوم التقدم ومفهوم الثقافة، فلا ربط أصلاً بين مدى ما تكشفه المرأة من جسدها وما يعنيه مفهوم التقدم والتطور. ويشد انتباهي حقيقة الهنود، فالسيخ مثلاً نراهم يعتزون بعمائمهم، ولا ينزعونها نتيجة وجودهم في بيئة مختلفة، فترى أحدهم بعمامته في مختبر للأبحاث في مراكز علمية مرموقة عالمياً. وكذا بالنسبة إلى "الساوي" التي تضعه المرأة الهندية، ففي أي موقع كانت، فإن آثار ثقافتها وما تؤمن به ظاهراً على ثيابها، ونحن لا نعمم هذه القضية إلا أن وجود مثل هذه الفئات تعطي دلالة ولو بسيطة عن معنى الاعتزاز بالثقافة التي لا تتعارض أصلاً مع معنى التطور.

فقضية الاندماج مع الآخر في جميع تفاصيل حياته من فكر إلى لباس، إلى طعام، إلى إيمان ببعض القضايا، تمثل حالة ضعف وتذبذب وعدم ثبات على ما يؤمن به الفرد، فوجودك في بيئة غريبة عن بيئتك لا يعني ذوبان ثقافتك فيما يؤمن به ذلك المجتمع، وربما كان أمر اللباس الوطني مثيراً للاستغراب والتعجب عندما كان يلبسه الفرد قبل عشرين أو ثلاثين سنة مثلاً، أما الآن فالأمر مختلف تماماً، فتقارب الثقافات أوجد حالة من الانفتاح والاطلاع على الآخر، ما يرفع حالة الاستغراب عن عادات وتقاليد وتراث الأمم المختلفة على الأرض، لذا فوجود حالة نفسية تتم عن الإحراج والخجل ليست واردة في موقع يستلزم من كل شخص إبراز ثقافته وتقاليد وشخصيته، ليكون إعلماً متحركاً بحد ذاته، معبراً عنها بوعي وفهم. وتتمثل خطورة "التقليد اللباسي" إن صح التعبير - في كونه حالة من الانفصام في السلوك، فنرى من واقع حركة اللباس في دول الخليج، كمثال، تحولاً غربياً لمفهوم اللباس تحت الأطر الشرعية، ليأخذ منحني جديداً، فنرى المرأة لابسة العباءة - وهو اللباس التقليدي والشرعي - ومرتدية بنطلوناً ضيقاً، أو أن تكون منقبة، وهو نوع من الغطاء تستر به المرأة وجهها ما عدا عينيها، ومرتدية T.Shirt أو قميصاً ضيقاً Strait shirt، مثل هذه المظاهر والملبسية، تعكس وبصورة واضحة معنى اللباس ودلالته في ثقافة الفرد خاصة إذا جمع بين رمزين يحملان في ذاتهما التناقض، ومثل هذا الأمر لا يحده الإطار الشخصي في اتخاذ نوعية الملابس، بل ينسحب على سلوك هذا الشخص وتعامله مع آليات المجتمع المختلفة وكيفية التأثر بها ومنها.

### ملابس الأطفال.. بين الرمزية التعليمية والسلوك

يكون التأثير الأكبر عندما يتحول اللباس إلى موجّه تعليمي غير مباشر، خاصة بالنسبة إلى الأطفال، فلقد أصبحت ملابسهم في محلات الملابس الجاهزة تحمل إشارات رمزية كالكتابة، والكتابة تحمل عناصر لا واعية، فقد أصبحت أكثر ملابس الأطفال المعروضة تحمل أحرفاً وكلمات باللغتين الإنكليزية والفرنسية، وخاصة باللغة الإنكليزية، ومن هذه الكلمات: "ولت ديزني"، "محارب"، "ملك King"، "أسد Lion"، "قوة، إكراه Force"، "كاليفورنيا California"، "تكساس Texas". إن هذه الشفرة/ الرسالة هي إقحام للأطفال ضمن نسق ثقافي غربي، فيه من العنف والعصبية: محارب، أسد، ملك، قوة، وكذلك فيه إدماج لهم ضمن جغرافيا العالم الغربي، وبالتالي انتزاعهم مبكراً من الجغرافيا العربية والإسلامية.

وكذلك هناك دعاية مستمرة للإعلام الغربي لتركيز أرضية تقبلها "ولت ديزني" كما نجد قمصاناً وسراويل تحمل أعلاماً غربية "العلم الأميركي أو العلم الفرنسي وغيرهما"، وفي ذلك تطويع للأطفال على التماهي مع هذا السياق الثقافي الغربي.

فالعديد من الملابس هي ملابس (كاوبوي) رعاة بقر الغرب الأميركي، حاملة هذا النعت مكتوباً أحياناً، وهي ملابس عنف بمظهرها المشحون، "المحزوق" وألوانها الداكنة المتجهمة، علاوة على أنها مخزونة بتاريخ عنف ديموغرافي وثقافي ضد الهنود الحمر في القارة الأميركية، وهذه الملابس موشاة برسوم لرعاة البقر الأقوياء المنفردين، ما يرسخ في الأطفال أخلاق القوة والعنف والفرذانية.

وهناك ملابس أخرى مزينة برسوم خرائط الأبراج وقراءة الكف، ما يعني ترسيخ إرهابات اللاعقلانية في السلوك الطفولي والميول البدائية ذات الصلة بالسهولة والحظ والدلال.

كل ذلك يعني تحطيماً مبكراً يقوم به الكبار للشخصية الطفولية السوية، عن طريق تقديم مثل هذه الملابس لأطفالهم، وهذا من عوامل انتشار مظاهر الشقاوة والعدوانية والعصبية والفشل المدرسي لدى الأطفال، وكذلك يعتبر من العوامل التربوية التي تدعم سيرورة الاغتراب والتبعية الثقافية والانفصال عن الروابط العربية والإسلامية، وبصورة قوية وحادة.

### الاستخدام السياسي والعقائدي للثياب

ويأخذ بُعد التوجيه الثقافي الملبسي المضاد إلى أبعد حدوده، عندما تتخذ الرموز العقائدية رمزاً في حركته، فبين فترة وأخرى تشاهد مثل تلك التوجهات، عبر فيلم هنا، وعرض أزياء هناك ليؤصل حالة الاستهزاء والاستخفاف بمشاعر أكثر من مليار إنسان يعتنقون الديانة الإسلامية.

"سحب سراويل عليها آيات قرآنية من سوق بميتشيغان"، نقرأ تحت هذا العنوان الخبر الآتي: "قال مسؤولون في مجمع للتسوق: إن متجرًا بميتشيغان وافق على وقف بيع سراويل جينز نسائي عليه آيات من القرآن، قال زعماء إسلاميون إنه مسيء للإسلام، واشترى مسؤولون بمجمع "نورثلاند" للتسوق أمس السراويل العشرين الباقية التي طبعت عليها كلمة "الله" و"بسملة" وهناك آيات قرآنية بطول الخصرين وثنيتي السروال "الجينز" الذي أنتجته شركة وقالت سوزان حداد المتحدثة باسم مجمع Northland: "إن صاحب المتجر الواقع على بعد ٣ كلم عن ديترويت وافق على الامتناع عن بيع هذا السروال". وأضافت: "لقد أبعدت جميع السراويل، ونأمل أن يسود الهدوء وأن تتوقف الاتصالات الهاتفية التي يتلقاها التاجر".

وهددت الجماعات المسلمة في ديترويت التي فيها أكبر مجمع للعرب الأميركيين في الولايات المتحدة بمقاطعة المتجر ومجمع التسوق، ومن جهة أخرى نرى أن الحجاب عند الأوروبيين يعتبر رمز الانغلاق والتطرف، ولا يزال أحد الموضوعات المفضلة في البرامج التلفزيونية التي تدور حول الإسلام، كما كاد يصبح الدين مقصوراً على هذا الرمز الإسلامي، وإذا كانت الكاميرات الغربية تلاحق النساء المتشحات بالسواد، فهي لم تول المفردات اليومية لهذا التقليد في ارتداء الثياب، إلا أقل القليل من الاهتمام حتى الآن.

والمفاهيم الغربية السلوكية تتزامن في الكثير من الأحيان مع مقتضى الدلالة اللباسية للفرد، فارتداء الشاب مثلاً T-Shirt يحمل صوراً رمزية أو تصريحية للثقافة الغربية – مثلاً نساء فانتات، ممثلون وممثلات السينما الغربية الهوليوودية – تعني بطريقة وأخرى تحرك مثل تلك الرمزية وتصلها في شخصيته.

### المفهوم الأنثوي للمرأة الغربية وحركته في الشرق

كتب "جان بابي" عن المرأة الغربية: "تعلم أن الرجل تجذبه الشباب والفتنة الجسدية، ومن هنا كان جهدها الدائم الذي يستغرق كل تفكيرها، لكي تكون مرغوبة مشتهة، ومما يزيد الطين بلة، الدعاية الهائلة في البلدان الرأسمالية المتقدمة في وسائل الموضة والتجمل والتبرج (...)، إن الحاجة إلى التألق والتجمل حاجة طبيعية لدى الإنسان، ولكن في الظروف الراهنة لمجتمعاتنا تمثل هذه الحاجة شكلاً خطيراً من أشكال استلاب المرأة وتحويلها عن النشاطات التي يمكن أن توفر لها تلبية أعمق وأكثر دواماً، ثم أن ذلك التغني الأرعن بـ "الأثوثة" وتلك الحملات الهوجاء من دعائية "مجلات القلوب" تقود المرأة حتماً إلى الضياع، فلا تعود ترى في نفسها غير أداة لاستثارة شهوة الذكور، وكل ما تحاوله في هذا المجال وكل ما تتكبد منه مشقات لا يقربها من الرجال، بل يبعدها عنهم، إذ يحولها عن النشاطات الاجتماعية التي هي سبيلها الوحيد إلى مساواة فعلية مع الجنس الآخر".

تداعيات التواصل مع المفهوم الغربي للباس لدى المرأة الشرقية بشكل عام والمرأة المسلمة بشكل خاص، تأخذ أشكالاً متعددة ومتنوعة وذات تعقيد نسبي يتمتع بضبابية في ترجمة التقاليد الاجتماعية، أو الأحكام الشرعية، وتوجد حالة من التشاكل الرمزي في اللباس كمحاولة للوصول إلى مرحلة التوفيق بين النظرة الغربية والتقييد بالزّي الشرعي، "الحجاب" فعلى مساحة الحرية المعطاة للفتاة أو المرأة في ترجمة ذلك المفهوم إلى زي هو مزيج من الشكل الغربي في الأسلوب والتقييد الشرعي بالحجاب، ترى مثلاً من هذا المنظور، فتاة تلبس الحجاب "غطاء الرأس" مرتدية سروالاً ضيقاً ملتصقاً بجسمها، وكأنه جلد لها الثاني.

وتتمثل صور أخرى من أشكال الضبابية في ترجمة التقاليد الاجتماعية والأحكام الشرعية مع الحركة الغربية اللباسية في تكون سلوك نستطيع أن نسميه بـ "تفاهق السلوك الملبسي"، فتظهر بعض الفتيات باللباس العرفي أو الشرعي، مثل العباءة الخليجية كنوع من التغطية على ما تلبس تحتها من سروال ضيق أو قميص، فهذه الصورة هي محاولة مزدوجة لإرضاء العرف الاجتماعي كقوة ضغط تتدخل في السلوك الفردي من جهة، وهي ترجمة تعكس القناعة، وإن كانت سطحية لتأثيرات جذابة تستقي من ثقافة اللباس الغربية من جهة أخرى.

وتأخذ صورة ثالثة، تملك مساحة واسعة من ثقافة اللباس في البلدان العربية، والخليجية كأنموذج لعملية التوفيق بين العرف الاجتماعي والتصور الغربي للباس، اتسمت بالتدرج في الوضوح وأخذ شكلها النهائي لتصبح بعدئذ أمراً لا توضع عليه علامات الاستفهام والاستيضاح، "البالطو" نموذج لباسي متطور اكتسب مصداقيته الشرعية وحركته العملية في الواقع، وتولد منه إثر الإرهاصات المتكررة للموضة "البالطو المخصر" واتخذ هذا الاسم التخصصي نتيجة تجسيده لخصر المرأة وتتابع الولادات اللباسية من "البالطو" الأم المحتشم،

لتنكون صور متعددة منها "البالطو المطرز" والامتفنن في جماليته، وهكذا تعددت الصور لتعكس ثقافة جديدة هي مزيج من بيئة شرقية تعتق ديناً سماوياً "الدين الإسلامي"، وثقافة غربية وافدة لها غاياتها وأنماطها التي تختلف مع ثقافتنا وبيئتنا.

فتنامي الحس الاستهلاكي عند المرأة الشرقية بوجه عام، والمرأة العربية بوجه خاص يفضي إلى تكوين قناة استتراف دائمة نتيجة تبلور فكرة التجميل الجسدي المترابط دائماً مع آخر صيحات الموضة، وبالطبع تشترك حيثيات أخرى في تثبيت الحركة المنجذبة للنساء الشرقيات تجاه الزي الغربي، ونخشى أن يأخذنا الاستطراد إلى تفرع يذهب بوحداوية الموضوع وتناسق الأفكار، وتواجد مثل تلك القناة الاستترافية وتنميتها مع الحس الاستهلاكي يؤدي إلى تخصيص ميزانية يتوقف عندها المرء ليتأمل فيها كثيراً وبطبيعة الحال، نحن لا ننكر حق المرأة في التجميل والتزين، طبعاً في حدود ما تقتضيه المصلحة الشرعية، من دون أن يتحول إلى هم تعيشه المرأة وتسعى لتعميقه عبر الانغماس فيه.

### وماذا عن الرجل؟

قد يسأل قارئ أين موقع التحليل الملبسي بالنسبة إلى الرجل، أم أن الأمر عنه أقل، فنقول إن طبيعة الزحف المعرفي الغربي للباس يتسارع على الجهتين للجنسين الرجال والنساء، إلا أن وتيرته الملحوظة والبيئة تتركز في الجهة النسائية كونها مركز إثارة لا بمعنى النقص في ذاتها بل لأصل إيجابي في تكوينها، فإثارة المرأة طبيعة فطرت عليها، والرجل أيضاً يمثل مصدر إثارة للمرأة، فهما في ذلك سببان نتيجة للتواصل والترابط التكويني الوظيفي والعاطفي الغريزي بين الجنسين، إلا أن التحرك التجاري والإعلامي يركز على مصدر الإثارة الأنثوية الجسدية، لكون مجال القوة في العالم وتدفق رؤوس الأموال بيد الرجال، ولكون مورد الاستتراف المالي يكون أكبر إن تحولت المرأة إلى مصدر إثارة للرجل الذي يعمل ويمتلك رصيماً، ولكون الحركة الانجذابية للرجل نحو المرأة أكبر وأقوى وأشد من انجذابية المرأة للرجل. والمرأة تهتم بشكلها وجسدها أكثر من الرجل، فليس من المتوقع أن تترك المجالات النسائية وتهول لشراء المجالات الرجالية الإباحية.

وعوداً على بدء فالتركيز على الملبس النسائي في حركة المفهوم الغربي ودلالاته على المجتمعات الشرقية، تأتي جراء واقع الثقافة الغربية تجاه اللباس ذي الأثر البين في تلك المجتمعات بحكم عوامل عدة منها: العولمة، الخطابات المؤثرة في القنوات كالإعلام والسياسة، وبالرغم من كل ذلك فالانحراط في تشكيلات الثقافة الأخرى ذات المغزى السلوكي الثقافي المغاير، عملية تستلزم الكثير من الوقفات التحليلية ذات النظر البعيد، ليس لكون ذلك الأمر حصراً ثقافياً معنوياً فقط، بل له فروع وتشابكاته في الاقتصاد والسياسة والاجتماع.

